

تقديم كتاب الأستاذ عبد الواحد المكني المعادلة الصعبة فشل حركة الاستنارة الحديثة في البلاد العربية

منصف باتي

المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية

جامعة منوبة

هذا الكتاب للباحث الجامعي عبد الواحد المكني، أستاذ التاريخ المعاصر والأنثروبولوجيا التاريخية بالجامعة التونسية ينضاف إلى مؤلفاته السابقة (1) التي تهتم عموماً بالتاريخ الاجتماعي التونسي وتطوره زمن الحماية الفرنسية. كما يندرج هذا المبحث ضمن المؤلفات الأكاديمية التي صدرت في السنوات القليلة الماضية بعناوين عديدة ومتنوعة تطرح قراءة تاريخية نقدية لإشكالية أساسية بالنسبة إلى العالم العربي ألا وهي "النهضة العربية الحديثة" (2). ولا

(1) أنجز المؤرخ عبدالواحد المكني المؤلفات التالية :

- المكني، عبد الواحد، الحياة العائلية بجهة صفاقس بين 1875 و1930، دراسة في التاريخ الاجتماعي والجهوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، 1996.
- شتات أهل وسلات من 1872 حتى بداية القرن العشرين، دار سحر للنشر، 1998.
- النخب الاجتماعية التونسية زمن الاستعمار الفرنسي (1881-1956)، "الأشراف البلدية مثلاً"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقس، 2004.

(2) أنظر حول هذه المسألة بعض هذه المؤلفات :

- صالح، هاشم، الانسداد التاريخي، لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟، دار الساقى ورابطة العقلايين العرب، بيروت 2007.

شك أن تنوع هذه الكتابات يعكس مدى أهمية هذا الموضوع الذي يشغل الباحثين والنخب ويفسح المجال لمزيد التفكير في أسباب فشل حركة الاستتارة الحديثة في البلاد العربية. غير أن الجديد في هذا العمل هو اعتماد المؤلف على المقاربة الأنثروبولوجية التاريخية لقراءة أحداث وظواهر ومظاهر وللتأمل في الفاعلين الاجتماعيين بمختلف أصنافهم (ص11). ويمكن تفسير الاعتماد على هذه المنهجية لاعتبار المؤلف ظاهرة الاستتارة في البلاد العربية الحديثة بوصفها حركة اجتماعية تاريخية وبوصفها حركة فكرية وثقافية (ص12).

تكوّن الكتاب من كشف للموضوعات في صفتين (ص/ص 5-6) وتصدير في صفحة (ص 7) وتوطئة في صفتين (ص/ص 9-10) ومقدمة عامة في أربع صفحات (ص/ص 11-14). وقد حاول المؤلف من خلال التوطئة والمقدمة تبرير اختياره للموضوع ولمنهج التاريخ المجهرى في إطار مقارنة نظرية تاريخية أنثروبولوجية جمعت بين ما هو سياسى واجتماعى وثقافى. واشتمل المؤلف على خمسة أبواب (ص/ص 15-207) وخاتمة عامة في 3 صفحات. وبالإضافة إلى قائمة المراجع اشتمل الكتاب على فهرس للأعلام ولأماكن والمصطلحات في 9 صفحات.

وتنقسم أبواب البحث إلى :

الباب الأول : في منظومة التدين المتداول في البلاد العربية (تأملات مجهرية) : (ص/ص 15-47 : 32 ص) الذي شمل 5 دراسات هي على التوالي :

في التاريخ المجهرى وتطبيقاته على مظاهر التدين وسلوكياته (ص/ص 17-22)

الصغائر تؤرخ للكبائر حادثة خصومة الطاهر الحداد مع شيخ الإسلام سنة 1919 (ص/ص 23-33)

-
- المحجوبى، على، النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر: لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان، مركز النشر الجامعى، تونس، 1999.
 - المحجوبى، على، العالم العربى والمعاصر، تخلف فاستعمار مقاومة، دار محمد على للنشر ودار الانتشار العربى، بيروت، 2009.

صلاة القياد (ص/ص 35-37)

صكوك الغفران المعربة (ص/ص 39-42)

الورع والتشهير جولة عبر الفضائيات العربية في رمضان (ص
ص 43-46)

مظاهر منسية من التدين الشعبي بمغرب القرن التاسع عشر "صالحات
استثنائيات" (ص/ص 47-51)

الباب الثاني : ماض لا يمضي (ظواهر وعودات) : (ص/ص 53-75 :
22 ص) وفيه 5 دراسات وردت بالعناوين التالية :

زمنية الظواهر : الفرادة والعودات (ص/ص 55-61)

في زمن العودات "العروشية" أعلى مراحل القبيلة (ص/ص 57-61)

في أداء النخبة العربية المتقفة استفاقة ما بعد التقاعد (ص/ص 63-68)

حراك التجنيس : بين الإسقاط والإفراط (ص/ص 69-74)

"الشوشانة" : سوداء في النهار حمراء في الليل (ص/ص 75-80)

الباب الثالث : السير إلى الوراء والتدمير الذاتي (سياقات ومظاهر
راهنية) : (ص/ص 81-122 : 41 ص) وقد شمل 7 دراسات هي :

في إشكاليات تأريخ "اليومي والمعتاد" (ص/ص 83-85)

تهميش الإنسانيات في المنظومة التعليمية العربية (ص/ص 87-90)

سقوط صخرة المقطم : الانهيارات ليست جديدة... لكنها متواصلة
(ص/ص 91-95)

حمى استكشاف الكنوز في البلاد العربية من الخبير إلى البخور
(ص/ص 97-102)

حرائق "الحارقين" : جذور ودلالات (ص/ص 103-108)

مسألة نشيد وطني أم وطن منشود (ص/ص 109-116)

على هامش مسلسل أسمهان : الدراما التلفزيونية وكتابة تاريخ المرأة العربية (مشاكل وإشكاليات) : (ص/ص 117-122)

الباب الرابع : في التهميش والهامشية المضادة (نصوص متمرده) : (ص/ص 123-167 : 44 ص) وقد شمل 3 دراسات وهي :

اللغة الاحتجاجية وكتابة التاريخ (ص/ص 125-127)

أشهر قصيدة بذئنة في تاريخ تونس زمن الاستعمار الفرنسي (ص/ص 129-155)

"دفعه على الحساب" : حول كتاب "الحبس كذاب..." لفتحي بلحاج يحيى (ص/ص 157-167)

الباب الخامس : رواد الاستنارة الحديثة في تونس (بيوغرافيا إشكالية) : (ص/ص 169-207 : 38 ص) وقد شمل 7 بيوغرافيات وهي :

في البيوغرافيا الإشكالية ورهاناتها : (ص/ص 173)

خير الدين التونسي (1822-1890) : (ص/ص 175-181)

أحمد بن أبي الضياف (1802-1874) : (ص/ص 183-187)

محمود قابادو (1812-1871) : (ص/ص 189-192)

الجنرال حسين (1820-1887) : (ص/ص 193-199)

محمد بيرم الخامس (1840-1889) : (ص/ص 201-204)

سالم بوحاجب (1827-1924) : (ص/ص 205-207)

وعلى ضوء الهيكل العامة للكتاب الذي اشتمل على 5 أبواب في 177 ص و 27 دراسة فإن الأسئلة والإشكاليات التي تعالجها هذه الأبواب كما هو واضح تتراوح بين ما هو نظري وما هو تاريخي أنتروبولوجي. كما تكشف لنا البيولوجرافيا المتكونة من 32 عنوان باللسان العربي و 32 مرجع باللغة الفرنسية التناغم بين هذه الدراسات الأكاديمية المنشورة وخصوصية الموضوع الذي يتناوله الكتاب والمنهجية المعتمدة لتبليغ الأهداف المعرفية والعلمية في إطار ما يعرف إستيمولوجيا ومنهجيا بالتاريخ الجديد والتاريخ المجهرى كمقاربة بديلة لتجديد الكتابة التاريخية وتطويرها.

بالعودة إلى محاور الكتاب يمكن الاستنتاج أن المؤلف تطرق في دراسته لمظاهر اجتماعية بأسلوب نقدي يهدف إلى تجديد الكتابة التاريخية فهو يعتبر بأنه على المؤرخ أن يفكر وينقد ويكتب في الراهن وفي المستقبلات أيضا وبروح الفكر النقدي النسبي (12). وفي علاقة بموضوع الكتاب وبالفكر النقدي يعرف الباحث الاستنارة على أنها حركة فكرية وفلسفية وسياسية تستند إلى الحداثة والانبعاث والتعصير وترتكز على العقل في النظرة إلى الواقع وفي عملية تغييره وتؤمن بالمعرفة كأداة لإنارة الطريق (ص 13). ويمكن في نظرنا تقسيم محتويات الكتاب إلى ثلاثة محاور كبرى تتناول قضايا مترابطة إذ يتعرض المحور الأول إلى مسألة هامة مرتبطة بظاهرة اجتماعية مؤثرة على صلة بالدين وما ينفرع عن ذلك من تأثيرات سلوكية يومية تناولها الباحث بأسلوب تاريخي نقدي معتمدا آليات التحليل الميكروستوري. وإن ما يشد الانتباه أكثر في هذا المحور ما تعرض له الطاهر الحداد (1899-1935) الذي اشتهر بأفكار التحديث العصري ومقاومة الجهل والتزمت ومساندته للفكر النقابي الوطني ودفاعه عن حرية المرأة وإصداره لكتابه الشهير "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" من اعتداء على حريته الفكرية بسبب نقمة المتزمتين وغضب المحافظين الذين كفروه ونبذوه وألبوا العامة عليه فمات كمدا بعد أربع سنوات من العزلة والمكابدة (ص 23). وأما المحور الثاني فقد تناول من خلاله الباحث بصفة عامة مظاهر اجتماعية وثقافية مختلفة بأسلوب نقدي وإن الخيط الناظم لهذا المحور يتعلق أساسا بظاهرة التهميش الثقافي من خلال تهميش الإنسانيات في المنظومة التعليمية العربية (ص 88) والتهميش الاجتماعي الذي هو مجال اهتمام الكتابات التاريخية في إطار مقاربات معمقة تشمل مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والمادية والثقافية. ونشير هنا إلى أن الرافضين للتهميش بالبلاد التونسية قد عبروا بتعبيرات متنوعة امتزج فيها النقد اللاذع الساخر باللغة البذيئة كسلاح للمقاومة ونشر ثقافة مضادة وقد راهن على هذا الأسلوب المناضلون من الشعراء على غرار الشاعر الشعبي التونسي عبدالرحمان الكافي المعروف بأشعاره الناقدة والساخرة والمتمردة في عشرينيات القرن العشرين (ص 129). وأما المحور الثالث فهو قراءة بيوغرافية وإشكالية لمرحلة من مراحل الفكر التنويري في البلاد العربية الحديثة ولتجربة من تجاربه في القطر التونسي وتعنى هذه القراءة بجبل

التأسيس في تاريخ تونس الحديثة التي عرفت مشروعا نهضويا تبنته نخبة مستتيرة محدودة العدد لكنها فاعلة (ص 172) وقد ارتبط هذا الجيل رمزيا بالمصلح والمفكر خير الدين التونسي.

لقد استطاع الأستاذ عبد الواحد المكني بما يطرحه في هذا الكتاب من إشكاليات وما يضيئه من زوايا حول قضية أساسية مرتبطة بالنهضة العربية الحديثة وأسباب فشلها من وجهة نظر تاريخية أنثروبولوجية تقديم إضافة علمية جديدة وهامة للمكتبة التونسية والعربية من خلال الغوص في التاريخ الاجتماعي التونسي على وجه الخصوص بالاعتماد على أمثلة مجهرية وهو في نظرنا محاولة جريئة لطرح ومعالجة بعض الإشكاليات المتصلة بقراءة نقدية لفكر الاستتارة في البلاد العربية في هذا الظرف الصعب الذي يمر به العالم العربي نتيجة الصراع بين مشروعين حضاريين مختلفين أحدهما يدافع عن الحداثة ومكتسباتها وعن الحرية والديمقراطية وآخر يسعى إلى تدمير ذلك محاولا فرض نمط فكري مصاب بوباء الأصولية والتعصب والإكراه والتكفير. ولا يمكن تجاوز هذا المشروع الأخير إلا ببلورة فكر منفتح متسامح وعقلاني ينبذ التزام المتصل بالتمسك بالعتيق للعقيدة الإسلامية.